السنيون والشـيعة

للأستاذ أحمد أمين

بهذا العنوان كتب الأستاذ « محمد رضا المظفر » من أفاضل علماء النجف مقالاً قيماً فى (عدد الرسالة ١١٨ السنة الثالثة) ؛ وقد استهلها الأستاذ بالعجب من أن أكون كاتب « فجر الاسلام وضحاه » ، وكاتب « مقدمة تاريخ القرآن » للأستاذ الزنجانى معاً وأن « النغمة التى ظهرت منى فى هـذه المقدمة نغمة متواضعة على وتر من إحساس جـديد » وأنها على عكس ما ظهر منى فى فجر الاسلام وضحاه ، وفسر ذلك بأن لى « شخصيتين تباعدتا على قرب العهد بينهما »

والحق — يا أخى — أن النغمتين صدرتا عن نفس واحدة كانت تـكره الخلاف بين السنيين والشيعة أشد الـكره وأعمقه يوم كتبتُ فجر الاسلام وضحاه كما كانت تـكرهه يوم كتبتُ مقدمة تاريخ القرآن ، وكما لا تزال تـكرهه إلى اليوم

وكل مظاهر الخلاف بين القولين سببه أنى بحثت فى فجر الاسلام وضحاه مذهب الشيعة كما يبحثه كل عالم ، وحاولت جهدى أن أضع التعصب جانباً ، وأن أتنامى أنى سنى أكتب عن الشيعة ، وأملأ نفسى عقيدة أنى مؤرخ يتطلب الحق حيث هو — ومن أجل ذلك نقدت السنيين كما نقدتُ الشيعة ، وقلت ما اعتقدته الحق فى هؤلاء وهؤلاء ، ووضعت الفرقتين فى كفتى ميزان ؛ فاذا قلت إن بعض الشيعة وضعوا بعض الأحاديث قلت إن بعض السنيين وضعوا بعض الحديث أيضاً ، لأنى اعتقدت الحق فى ذلك ؛ وهكذا سرت على هـذا المنهج دائماً وأنصفت المعتزلة فى بعض آرائهم ، والخوارج فى بعض آرائهم ، والشيعة فى بعض آرائهم . مع أن العادة جرت أن السنيين لا يرضون عن شىء من ذلك ، فأسلوبى فى الحالين طلب الحق حيث كان ، وإذا كان ديننا يتطلب منا أن نزن الحق فى ذاته من غير أى اعتبار آخر سواء كان مصدره مسيحياً أو يهودياً أو وثنياً ، فبالأحرى نزنه إن كان مصـدره معتزلياً أو خارجياً أو شيعياً ؛ وكل ما فى الأمر أن بعض إخوانى من الشيعة أخطأوا من ناحيتين : الأولى أنهم دائماً طبقوا ما أقوله عن الشيعة على أنفسهم ، وفهموا أنى لا أعنى بالشيعة فى كل موضع إلا إياهم ، مع أن الشيعة كما يعلمون فرق مختلفة لا حصر لها ، وأن منها الغالى الممعن فى غلوه ، ومنها المعتدل القريب من الأنصاف ، وليست الأمامية التى يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة ، بعضها باق إلى اليوم ، وبعضها عفى عليه التاريخ ؛ فخطأ محض أن يظنوا أنى كلما قلت « الشيعة » عنيتهم ؛ إنما يكون لهم الحق كل الحق أن يفهموا أنى أقصدهم عندما أتكلم على الأمامية أو الاثنى عشرية — والمؤرخ يجب عليه أن يؤرخ الماضى كما يؤرخ الحاضر ، وأن يذكر الغلاة كما يذكر المعتدلين ، فاذا عاب الغلاة فليس عيبه إذا فهم قوم منه أنه يعنيهم

والناحية الثانية هى مادعوت إليه فى « مقدمة تاريخ القرآن » من أنه يجب على العلماء من الطائفتين أن يوسعوا صدرهم للنقد النزيه « ويتلقوا النتائج بصـدر رحب » ، فهذه شيمة العلماء حقاً ، فكم أخطأ الشيعة وكم أخطأ السنيون ! فواجب الباحث أن يبحث المسائل حراً طليقاً ، ويتأهب للبحث وهو على الحياد بالنسبة للنتائج ، فسواء خرجت النتيجة صفراء أو سوداء لا يهمه ، لا أن يعتقد أولاً ثم يبحث عن البرهان الذى يؤدى إلى النتيجة التى اعتنقها من قبل ، فذلك ليس شيمة العلماء المخلصين للحق . وكل ما فى الأمر أن الواجب أن ينحى العامة وأشباههم عن الدخول فى مثل هـــذه المباحث لأنهم لا يستسيغونها ولا هم متهيئون لها ، وليست تنفعهم فى دينهم ولا دنياهم

بهذا الروح بحثت ، ولا أدعى العصمة ، فقد أكون أخطأت ؛ وقد وجه بعض اخوانى من الشيعة نظرى إلى أنى حين بحثت عولت على مصادر أهل السنة أكثر مما عولت على مصادر الشيعة ، وكان الواجب ألا يعتمد فى كلام خصم على خصم ، وأن ينظر فى قول كل فرقة إلى حكاية أصحابها وخصومها معاً ، ثم يمحص الحق من ذلك كله ؛ وقد أصغيت إلى هـذا القول واقتنعت بصحته ، فلما أردت أن أكتب فصل الشيعة فى الجزء الثالث من ضحى الاسلام توسعت ما وسعنى فى قراءة الكتب المعتمدة عنـد الشيعة ، ولا أزال أقلبها ظهراً لبطن وأفكر فيها من وجوهها المختلفة حتى ينشلج صدرى للحق وأومن بما يقوم عليه البرهان من غير تحزب لناحية — وليس يتطلب منى أكثر من ذلك . وإنما يتطلب من قادة الرأى فى الشيعة والسنيين

ألا يضيق صدرهم حرجاً مما يقال متى خلصت نية القائل — وعلى القائل والكاتب أن يعمد إلى الحق والحق وحده ، وأن يقوله فى أدب لا فى تهاتر وسباب

وليس من الحق ألا يرضى الشيعة عن المؤرخ إلا إذا مجد كل عقائد الشيعة وصوبها ، كما ليس من الحق ألا يرضى السنيون عنه إلا إذا مجد كل عقائدهم وصوبها ، فالمؤرخ قاض عادل لا يهمه من رضى ومن غضب ، وهو لم ينصب للارضاء والاغضاب ، إنما نصب ليتعرف الحق ويجهر به

هذا ما أردت أن أقوله من الناحية العلمية ، وأرى من وراء ذلك كله إلى القول بأن البحث العلمى شىء والنزاع والخصام شىء آخر ، وأن البحث العلمى لا يمنع التفاهم والوئام ، بل هو إذا نظر اليه النظر الواسع العالى سبب من أسباب الألفة

أما الناحية العملية فى الوفاق فسهلة ميسورة متى أخلص القادة فى ذلك — وهى فى هذا الزمان أيسر وأسهل ؛ وإذا كانت الوطنية قد استطاعت أن توفق فى مصر بين الأقباط والمسلمين ، وفى سوريا بين المسلمين والمسيحيين ، فكيف لا تستطيع المصالح المشتركة القوية الواضحة ألا توحد بين الشيعة والسنيين وهم أهل دين واحد يجمعهم الايمان العميق فى صدورهم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن كل الخلاف بينهم موجات على السطح وفقاقيع فى الظاهر يستغلها أهل الجاه والمال والرياسة فيوهمون أنها كل شىء فى الدين ، وليس ذلك بصحيح إلا إذا كانت فقاقيع الماء كل الماء ، وأمواج البحر هى كل البحر ، وزبد السوائل كل السوائل ، والعمامة الخضراء والحمراء والبيضاء هى كل الاسلام ؛ فالحق أن الاسلام أعمق من ذلك كله ، وما الخلافة والنزاع عليها والفروق الخفيفة فى مظاهر الوضوء والصلاة والزواج والطلاق ونحو ذلك إلا أشياء تافهة كل التفاهة بجانب القواعد الأساسية للدين ، والفرق بينهما كالفرق بين مظهر الانسان وقلبه ، وبين ملبسه ومخبره . ليكن الايمان بالأسس فى القلب ، ثم ليكن المظهر ما يكون ، فالله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم

وليقلل علماء الدين سنيون وشيعة من تمسكهم بالمظهر ومحافظتهم على وجاهتهم فى قومهم وأتباعهم وما يغله ذلك عليهم ، يروا أن الوفاق أقرب ما يكون وأسهل ما يكون ويضحكوا ويبكوا من سخافات السلف والخلف الذين أثاروا النزاع على التافه وتركوا اللباب

أليس من السخف أن يتقاتل طائفتان على خلاف تاريخى أكان علىّ أحق بالخلافة أم أبو بكر وعمر ، وعلى وأبو بكر وعمر فى قبورهم لا يعنون بشىء من ذلك ؟ أم ليس من السخف أن يتعادى طائفتان مسلمتان تقران كل أسس الاسلام من أجل اختلافهما فى جزئيات صغيرة فى أشكال الوضوء وما اليه ؟ أم ليس من السخف ألا يقر الشيعة بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من شيعى ؟ وألا يقر السنيون بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من سنى ؟.. لا لا أيها القوم ! جعفر الصادق رجل عظيم ، وأبو حنيفة رجل عظيم ، فليزر شيعة العراق أبا حنيفة لعظمته ، وليزر سنيو العراق مشهد الحسين لعظمته ؛ والأمهات يلدن النوابغ على السواء ، فلم تضن على الشيعة بنوابغ ولا على السنيين بنوابغ ، كما لم تضن على الأمم الأخرى بنوابغ ، فحصر كل فرقة تعظيمها لرجال فرقها ضيق فى النظر وفقر فى الفكر

وإذا زال هذا كله وأمثاله — وهى فيما أرى من البديهيات — رأينا الخلاف قد تبخر ولم يعد له أساس ، ولا يبقى إلا عند المؤرخ والباحث ، والمؤرخون والباحثون دائماً متصافون متى كان رائدهم الحق ، وشعارهم الصدق ، ولم تطوح بهم الأغراض والشهوات

ليس من وسيلة تدرأ هذا الخلاف إلا أن يتقدم علماء اليوم من الفريقين فيمحوا الآثار السيئة التى خلفها علماء الأمس

ولعل أصلح بقعة لذلك هى العراق ، لأنها أشد البلاد مظهراً لهذا الخلاف ، فيتعاون رؤساء الطائفتين لعقد مؤتمر فى بغداد من رؤساء السنيين والشيعة ، ويبحثوا وجوه الخلاف وكيف تزال فى جو هادئ مخلص ؛ وأسبق الطائفتين إلى هذه الدعوة أفضلهم ، ولا يجعلوا للعامة والغوغاء سلطاناً ، وليحذروا من أصحاب المطامع والشهوات ودساتسهم ، وليجعلوا شعارهم فى كل مجتمع وعند كل خلاف «مسلمون قبل كل شىء» «مسلمون قبل أن نكون شيعة وسنيين»

ولا بأس أن يدعوا قادة الفكر فى مصر والشام والحجاز للاشتراك فى هذا المؤتمر والتشديد فى حصر أغراضه فى ازالة الخلاف بين سنى وشيعى ، فلا يعنون أى موضوع آخر ، ثم يرسمون الطريق العملى لازالة هذا النزاع من تزاور الطائفتين ، واتخاذ شعار لهذا الوفاق ، وتبيين يوم يتخذ عيدا يذكر بهذا